



الخطاب التربوي وإشكالية التكامل المعرفي

Educational Discourse end Cognitive Integration Problem

الأستاذ: د. عبد الله بن عتو

الجامعة: محمد الخامس، الرباط،
المغرب

الأستاذ: نورالدين أرطيع

الجامعة: محمد الخامس، الرباط،
المغرب

ملخص:

ينطلق الخطاب التربوي من عدة منطلقات تشمل النص الديني (القرآن الكريم والسنة النبوية)، تحديات العولمة، العامل التكنولوجي، إكراهات مجتمع المعرفة. لذلك يتولد سؤال التوافق بين هذه العوامل الشاملة للأصيل والمعاصر ضمن خطاب تربوي متكامل وفعال. سعت هذه الورقة البحثية إلى تقديم الآليات الجديدة التي تسمح للخطاب التربوي تخطي إشكالية المنطلقات والتناقضات التي قد تمنع من لا -نفعية وتأثير الخطاب؛ كنظرية وإجراء. الكلمات المفتاحية: الخطاب التربوي- التكامل المعرفي- الفلسفة البراغماتية- النظرية التربوية.

Abstract:

The educational discourse is based on several principles as: the religious text (the Qur'an and the Sunnah), the challenges of globalization, the technological factor, and the constraints of the knowledge society. Therefore, the question of compatibility between these comprehensive factors of authentic and contemporary within an integrated and effective educational discourse is available.

This paper aim to introduce a new mechanism that allow educational discourse to solve the problem of premises and contradictions that may prevent the uselessness and influence of discourse, as a theory and procedure.

Keywords: educational discourse - cognitive integration - pragmatic philosophy - educational theory

مقدمة:

تنوعت الخطابات بين السياسي والفلسفي والديني...، إلا أن هذه الخطابات كانت من فكر وإبداع الإنسان لأهداف محددة في الزمان والمكان، وفي الجانب الآخر، يوجد خطاب من نوع آخر وخاص؛ فهو خطاب مطلق تلقاه الإنسان، وكثيرة هي أوجه الاختلاف بين الخطاب الأول والثاني من حيث الشكل والمضمون والغايات.

في البداية، إن الخطابات الإنسانية قد بنت لنفسها "مجموعة من القوالب أو النماذج التي تحقق للخطاب بلاغته، وقد بُنيت النماذج الناجحة بالتجريب والممارسة، وتتبع ردود أفعال المخاطبين وأقوالهم، فما حقق تواصلاً أبلغ نصح أهل البيان بالنسج على منواله، وما كان غير ذلك حذروا منه واجتنبوه ونهوا عليه"¹، بينما يعمل الخطاب في النص الديني على البعد النظري والتطبيقي، وبالتالي "لا يتوقف على البعد اللساني وحده، ولا على البعد الاجتماعي والتاريخي الذي يعتبر النص انعكاساً لحركة الدلالة في التاريخ، كما لا يقتصر على البعد التداولي المعني بالتواصل في موقف محدد"².

انطلاقاً من هذا التوجه، فالخطاب التربوي أسس لنفسه نماذج صرفت ضمن نظريات تربوية، تعمل على تحقيق مراميها المحددة سلفاً.

مفاهيم بحثية

لطالما كان مفهوم الخطاب سارياً في شرايين الموضوعات المتداولة والمصرح بها، إذ يعرفه كل اتجاه بما يتوافق وطموحاته وميولاته وكذلك غاياته، إلا أن الاختلاف لا يشوب جذوره،

¹ محمد بازي، صناعة الخطاب الأنساق العميقة للتأويلية العربية، ط 1، 2015، ص 45

² محمد عبد الباسط غير، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ط 1، 2009، ص 17.

فالخطاب ترجمة لمصطلح Discourse بالإنجليزية، و Discours بالفرنسية، وبالألمانية Diskurs، وأغلب هذه: "المفردات الأجنبية الشائعة لمصطلح (الخطاب) مأخوذة من أصل لاتيني هو الاسم Discursus المشتق بدوره من الفعل Discursere الذي يعني (الجري هنا وهناك) أو (الجري ذهاباً وإياباً)"³.

إذا كان معجم لالاند يعرف الخطاب على أنه: "التعبير عن الفكر وتطوره عبر متوالية من المفردات والقضايا المتتابعة المترابطة"⁴، فإنه حاول حصر المفهوم في أمور ثلاثة:

١ أن الخطاب تعبير عن أفكار تتميز بالتطور، وقضايا تتصف بالتعاقب والترابط.

٢ يتم التعبير عن تلك المنظومة الفكرية بواسطة مفردات وكلمات؛ أي باللغة. وبالتالي؛

فالخطاب لغوي الأصل، وكل تعبير خارج اللغة لا يعد خطاباً.

٣ قد يفهم الخطاب على أنه نمط متعدد للممارسة الاجتماعية، لأنه يكون ويؤثر على

العالم الاجتماعي برموز نظامية⁵، لكنه من جانب آخر، فالخطاب: "ليس تجمعا للكلمات

(أو الكلام بالمعنى الذي قصد إليه دي سوسير)، ولا ينحصر معناه في قواعد ذات قوة

ضابطة للنسق اللغوي فحسب، وإنما ينطوي على العلاقة البيئية التي تصل بين الذوات،

³ جابر عصفور: آفاق العصر، ط 1، 1997، ص 47-48.

⁴ Vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF, 4eme édition, Andre Laland, 1962.p277-278.

⁵ Rebecca Rogers: An Introduction to critical discourse analysis in education second edition, P30.

ويكشف عن المجال المعرفي الذي ينتج وعي الأفراد لعالمهم، ويوزع عليهم المعرفة المبنية في منطوقات خطابية سابقة التجهيز"⁶.

الخطاب التربوي:

ثمت الإشارة في معرض الحديث عن مفهوم الخطاب إلى أنه متعدد الأشكال والأنواع، نظرا لشموليته واندماجه داخل المجالات المعرفية. إلا أن درجة الاندماج تختلف من مجال إلى آخر، زيادة على ذلك، عدم البحث في ثنايا هذا الخطاب في مجال معين وذلك على حساب حقل آخر.

كثيرا ما نسمع عن الخطاب الإشهاري، والخطاب الديني، والخطاب النقدي..... لكن لم ينل الخطاب التربوي في العالم العربي عامة والمغربي بالخصوص حقه في الدراسة والتحليل مقارنة بالخطابات الأخرى، ما يدفعنا لطرح أسباب هذا التغييب والغياب.

إذن، فالتعريف المقدمة لهذا المفهوم "الخطاب التربوي" تكاد تكون منعدمة في المؤلفات ذات الصبغة العلمية. فلا مجال للشك منذ الوهلة الأولى، في أن الخطاب التربوي هو ذلك الملفوظ المتمركز حول التربية، وأوضاعها وقضاياها، ومشكلاتها، وهمومها، سواء أكان هذا الملفوظ كلاما شفويا أم مكتوبا، وسواء كان تعبيرا عن فكر علمي منظم، أو كلاما مرسلا عاما.

إذا كان مفهوم التربية دليل الإعداد السليم للطفل على مستويات عدة، فهذا الإعداد خاضع لزمرة من الخطوات السليمة والمعتلنة، وبالتالي فهي تستند إلى خطاب يتراوح بين اللغوي وغيره، وذلك حسب المجال طبعا، فالخطاب الإشهاري مثلا أضحي مشروطا بالصورة وإغراءاتها، بالألوان ودلالاتها، والحركات وتأويلاتها..... أي أنه لمحاولة منه لإقناع المستقبل يحاول الجمع بين

⁶ جابر عصفور، أفاق العصر، ط1، 1997، ص 49.

مكونات خطابية فيها اللغوي، والصوتي، والتصويري. الأمر عينه في الخطاب التربوي القائم على عناصر عديدة تتجلى في اللغة بهدف التنظير، كمرحلة أولى، والانجاز المبني على بسط الفعل اللغوي على أرض الواقع، في مرحلة ثانية، وهنا تدخل مؤثرات نفسية، واجتماعية، واقتصادية على الخط.

غير أن التعاريف المقدمة لهذا المفهوم، ربطته بصفة شبه دائمة باللغة، مما يجعله جملة من التصورات والمفاهيم والاقتراحات حول الواقع التربوي؛ وصفا وتحليلا ونقدا واستشرافا فيما بعد ذلك للمستقبل، أو حول العلاقة الكائنة والممكنة بين التربية والمجتمع، ليكون بذلك تعبير عن إيديولوجية منتجة لخطاب في لحظة تاريخية، وهنا نعود لتعريف قدم للخطاب على أنه نمط متعدد للممارسة الاجتماعية، باعتباره مكونا ومؤثرا في العالم الاجتماعي وفق رموز نظامية⁷. وفي هذا السياق يعتبر الخطاب التربوي بمثابة: "توجيهات ومعارف وقيم وإرشادات موجهة من قبل المربي إلى المتربي، وذلك بقصد تعديل السلوك الإنساني بما يتناسب مع فكر المربي وتصورات⁸"، غير أن هذا المفهوم يظل عاما وفضفاضاً، قد يستقبل من لدن المتخصص في علوم التربية على أن صاحبه يتحدث عن مفهوم التربية عوض الخطاب التربوي. ولهذا وجب التأكيد على أن دلالة كل من الخطاب التربوي والتربية تتجلى في أن المفهوم الأول يتميز عن الثاني من حيث التنظير والتطبيق الفعلي والواقعي؛ إذ الخطاب التربوي تنظير محض.

⁷ Rebecca Rogers: An Intrudaction to Critical Discourse Analysis in Education second edition, P30.

⁸ خضران بن عبد الله السهيمي، الخطاب التربوي للمرأة في روايات الأدباء العرب، ط 1، ص 20.

يعد الخطاب التربوي فعلا اتصاليا إيديولوجيا يسعى تبليغ دلالات تتصف هي الأخرى بالإيديولوجية. هذا الفعل اللغوي يعتبر اللبنة الأساس لهكذا خطاب؛ حيث إن لغة الخطاب لغة تمارس سلطة خفية تفرض على المتكلم قواعد يستوجب الانصياع والخضوع لها بوعي أو دونه. كما أن هذا الخطاب ما هو إلا جزء من هذه السلطة التي تترجم الرسالة (لغة المؤسسة حسب بيير بورديو) ليس عبر المضامين فقط، وإنما في سبل ترسيخها لدى المتلقي.

يشمل الخطاب التربوي –وفق أوليفي روبول- معاني ثلاثة:

✓ الشائع: يجعل من الخطاب منسجما مع الجمل المنطوقة (أو المكتوبة) من طرف

نفس الشخص عن موضوع معطى؛

✓ اللساني المختزل: وفيه تتساوى الوحدة اللسانية مع الجملة أو تفوقها؛

✓ اللساني الموسع: يعتبر مجموعة الخطابات المرسلّة من نفس الفرد أو نفس

الجماعة الاجتماعية، والعارضة لطبائع لسانية مشتركة⁹.

ويعد المعنى الثالث الأهم والأكثر إثارة ووزنا، فهو –عموما- عبارة عن مجموعة أقوال عن التربية، له سمات وصفات تميزه عن غيره من الأنماط الخطابية الأخرى: السياسي، الفلسفي.... ومنها:

- تعتبر التربية المادة الخام والمشروعة شكلا ومضمونا.

- السعي نحو الحقيقة، لكونها الغاية الأسمى. والتي هي عملية بالأساس،

في الآن ذاته حاملة لأحكام قيمية.

⁹ أوليفي روبول، لغة التربية، تحليل الخطاب البيداغوجي، ترجمة عمر أوكان، 2002، ص 16-17.

أنماط الخطاب التربوي:

استعمل أوليفي روبول كلمة أنماط "متصارعة" ليميز أنواع الخطاب التربوي السائدة من خلال لغتها ومضمونها:

Discours Contestataire: الخطاب الرافض:

يركز هذا الخطاب القضاء على أشكال التغريب، والرفض الشامل للمؤسسة التعليمية، بدعوى أنها جهاز إيديولوجي للدولة تمرر بواسطته أفكار ومعتقدات طبقة مهيمنة وتعيد ترسيخ/ إنتاج التمايز الطبقي القائم عبر تجريدها من المعرفة الأصلية والأصيلة.

Discours novateur: الخطاب المجدد:

إن من طموحات هذا الخطاب هو إقبار الأطروحات القديمة والتقليدية (التعليم الكلاسيكي): عبر توجيه سهام النقد للكتاب المدرسي الفاقد للقيمة البيداغوجية، والسعي إلى تكريس مبدأ تعلم الإنسان ما هو في أمس الحاجة إليه بالدرجة الأولى.

Discours Fonctionnel: الخطاب الوظيفي:

استنادا إلى الاهتمام البالغ الذي يحظى به مجال التربية، دفع بهذا الخطاب إلى جعله علما، يتصف بالدقة وتحاشي/ تفادي المفاهيم المبهمة والمصطلحات الغامضة، وإطفاء صفة النجاعة الفعلية من خلال تحقيق نتائج واقعية تعالج مشكلات دائما ما تكون ذات نفس وبعد تربوي.

Discours Humaniste: الخطاب الإنساني:

يرى هذا الخطاب أن مهمة التربية هي التثقيف والتنقيب على الإنسان داخل ذات المتعلم، انطلاقا من تقديم نماذج إنسانية كبرى بشرط غياب النخبوية والعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية.

الخطاب الرسمي: Discours Officiel

أكثر الخطابات سيادة وسيطرة في المجال التربوي، فهو خطاب ذو محتوى تربوي صادر من مالك السلطة: الوزراء وممثلهم، المنظمات الدولية.....

إجمالاً، الخطاب التربوي وجل التعاريف المقدمة له انطلقت مما جاء به أوليفي روبول، الذي جعل من الخطاب التربوي أكثر الخطابات إيديولوجية، بسبب ما يمرره من أفعال وأقوال غالباً ما تتخذ صبغة طرف ما (الحاكم)؛ "الخطاب البيداغوجي هو خطاب فكري ليس فيما يقوله فحسب، بل كذلك في الكيفية التي يقوله بها. وتظهر ذلك الخصومات والعواطف التي يستشيرها أو تستشيرها، والتبريرات العقلية التي يستند إليها، والخليط الانفجاري للمنطق والانفعالية اللذين يؤسسانه، والبلاغة اللاشعورية التي تطبعه"¹⁰. وجب التذكير على أن أوليفي روبول استعمل الفكرة في مقابل الإيديولوجيا.

كما أكد أن هذا الخطاب هو وسيط بين اللغة والكلام ضمن النطاق الأساس الذي هو التربية. إذ لا يكمن أن يخرج أو ينحرف عن هذا المسار المحدد سابقاً.

إذن، الخطاب التربوي خطاب لغوي وغير لغوي يمرر عبر قناة تواصلية واقعية أو افتراضية بهدف الرقي بمجال التربية عموماً والإنسان المتعلم خاصة، عبر تسخير أدوات تربوية-بيداغوجية تخدم تلك الغاية، لا الموقف الإيديولوجي، كما يعمل على كشف الاختلالات التي تسود الحقل التربوي وتحدد دون الوصول إلى المخرجات المحددة سلفاً، أي أن: "الخطاب التربوي يمثل منهجاً متكاملًا لطبيعة التربية التي تهتم بأفرادها، ومدى الرقي بهم في شتى المجالات، إذ إن محور الأساس هو الإنسان، ومدى توجيه الرسائل التربوية له، فهو يوجه السلوك إلى القيم المثلى التي

¹⁰ المرجع السابق، ص 17.

يهتم بها المجتمع ومؤسساته، لذا فالخطاب التربوي شامل للكثير من القضايا التي تهم الميدان التربوي¹¹.

تؤكد باللمس أن تعاريف الخطاب التربوي متعددة، هي الأخرى، وتختلف من باحث إلى آخر، تبعاً للهدف من البحث وموضوع الدراسة؛ فمثلاً سعيد إسماعيل جعله تلك: "اللغة المعبرة عن جملة التصورات والمفاهيم والاقتراحات حول الواقع التربوي، وصفا وتحليلاً ونقداً، واستشرافاً للمستقبل، أو حول علاقة الوجود بين التربية ومجتمعها"¹²، بهذه الصيغة، فالخطاب التربوي يعتمد في دراسته على الواقع التربوي ويركز عليه.

يتضح انطلاقاً مما ورد أعلاه، أن الخطاب رسالة ذات غاية ومعنى، ويأتي على شكل كلام منطوق أو مكتوب من لدن طرف ما، بهدف التأثير فيه (القارئ) وتغيير مواقفه. ولن تتحقق هذه الغاية ما لم يتم الانتباه لاعتبات الخطاب والتي هي: الظروف والسياق، الزمان والمكان. ولا شك أن للخطاب معان عديدة، وذلك حسب الحقول، ويعد الخطاب التربوي حقلاً من تلك الحقول المعرفية. وهو خطاب يتضمن جملة من المفاهيم والتصورات والاقتراحات حول مجال التربية، غير أنه يخضع لقوانين تأسيسية تقوم على: الوصف والتحليل، والنقد والاستشراف المستقبلي. خطاب يدخل في تعالقات نصية وسياقية مع المجالات الأخرى، ليعبر عن إيديولوجية معينة. وتختلف هذه الإيديولوجيا وتنوع بين الرسمية الحاضرة، ويكون مصدرها المسؤول عن القطاع والدولة عموماً، أو التصورات الاستشرافية التي تصدر من المهتمين بالشأن التربوي.

¹¹ خضران بن عبد الله السهمي، الخطاب التربوي للمرأة في روايات الأدباء العرب، ط 1، 2016، ص 125.

¹² نفسه، ص 128، 127.

صفوة القول، يشكل الخطاب التربوي، بما يتضمنه من فكر وفلسفة ونظام، الإطار الذي تشتغل وفقه التربية، بهدف تكوين فرد مفكر ومنتج للمعرفة وناقد لها في نفس الوقت. تصور لن يتحقق إلا عندما تصبح مكونات الخطاب قابلة للتطور والاشتغال داخل المجتمع الذي تكونت فيه.

التكامل المعرفي:

إن التوجه نحو التكامل المعرفي، لم يعد مرتبطاً برغبة التوجه السياسي تجاه القضية التربوية، بل أضحت ضرورة، تظهر في الآتي:

- ◆ الاهتمام العالمي، لكونه استراتيجية معاصرة تحقق الجودة التعليمية؛
- ◆ تحقيق مبدأ الوحدة المعرفية والثقافية لدى المتعلم؛
- ◆ ضمان ممارسة المتعلم لمهامه المستقبلية وفق تصور شامل يربط بين النظري والتطبيقي.

مفهوم التكامل المعرفي:

يعتبر التكامل المعرفي الكل المتصل الذي يقدم للمتعلم من معارف سواء في الجانب الأفقي أو العمودي، فهو بذلك " الطريقة التي يتم بها ربط المعارف بعضها ببعض، وارتباط المحتوى الفكري بالبناء العقلي"¹³.

¹³ الشربيني فوزي، عفت الطنطاوي، مداخل عملية في تطوير المناهج التعليمية على ضوء تحديات القرن الحادي والعشرين، الانجلو المصرية، القاهرة، 2001، ص 211.

ويعتبر أيضا، "إحداث نوع من الوحدة بين المعارف الموزعة وتجميعها في منتجات معرفية وخدمات خاصة بالمعرفة، تعمل على تحديد المجالات المعرفية وربطها مع بعضها البعض في صورة متقاربة"¹⁴.

كما أنه "محاولة للربط بين الموضوعات الدراسية المختلفة التي تقدم للطلاب في شكل مترابط ومتكامل وتنظيمها تنظيما دقيقا، يسهم في تخطي الحواجز بين المواد الدراسية المختلفة"¹⁵.
بناء عليه، فالتكامل المعرفي هو بوابة موضوعاتية تربط بين معارف المواد التعليمية، وإزالة الحواجز القائمة فيما بينها.

ضرورة التكامل:

1. المعلم يحتاج إلى معرفة طبيعة الحياة بظواهرها ومشكلاتها في شموليتها ليتمكن من حل المشكلات التي يواجهها؛
2. لا ترتبط المشكلات المواجهة للمتعلم ببعد واحد، بل تقوم على أبعاد متعددة: اجتماعية، اقتصادية، سياسية، تاريخية، تكنولوجية، شخصية...؛
3. غياب الربط المنطقي للمعارف سيؤثر على وظائف المتعلم وقدراته في مرحلة أولى، وإنتاجه في مرحلة ثانية؛

¹⁴ مدحت محمد، إبراهيم صالح، فاعلية المدخل التكاملي القائم على حل المشكلات في تنمية التحليل بمبادئ العلوم والرياضيات والدافع للإنجاز لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية متابيني المستويات التحصيلية، مجلة كلية التربية ببورسعيد، جامعة قناة السويس، العدد الأول، ديسمبر 2006، ص 167.

¹⁵ أحمد فايزة، محمد أمل، فاعلية وحدة مبنية على التكامل بين مادتي التاريخ والتربية الفنية باستخدام الكمبيوتر لتنمية التحصيل المؤجل واكتساب بعض مهارات التعبير الفني والاتجاه نحو الكمبيوتر لدى تلاميذ الصف الأول الإعدادي، مؤتمر إعداد المعلم في الوطن العربي بين الواقع والمأمول، كلية التربية، جامعة الفيوم، 18-19 أبريل، ص 316

4. التكامل المعرفي يتناسب مع طبيعة العقل الإنساني؛ حيث يتفاعل الدماغ مع المعارف والمشكلات ككل متكامل.

التكامل المعرفي والمؤسسة التعليمية

لا شك أن المدرسة مؤسسة تسعى خدمة مؤسسات أخرى، في إطار نوع من التكامل القائم فيما بينها. وتتجلى معالم هذا التكامل في:

➤ الاستكمال: إن المدرسة تسعى إكمال العملية التي تقوم بها الأسرة من حيث القيم والمبادئ الأولية للحياة.

➤ التعديل: ونستحضر هنا مفهوم التمثلاث التي تكونت لدى المتعلم من لدن المؤسسات الأخرى.

➤ التنسيق: تعمل المؤسسة التعليمية على جعل نفسها حلقة وصل وربط بين كل المؤسسات ذات الشأن التعليمي – التعليمي والتربوي؛ أي الحد من الفجوة المفترضة بينها، والتي قد تبرز في الآتي:

- أ. تناقض معرفي وقيمي؛
- ب. غياب الرؤية النقدية الذاتية
- ت. اختلافات من حيث الوسائل والغايات؛
- ث. طبيعة المؤسسات: تقليدية ومعاصرة (المسجد والإعلام)، وتولد إحساس الرغبة في السيطرة.
- ج. انعدام الانسجام بين مهارات المدرسة ومتطلبات التنمية وسوق الشغل.

ح. الإكراه التكنولوجي.

أمام كل هذه الفجوات والتناقضات، يوجد طفل يتصف بالحركية والفضول والديناميكية، ميال إلى المحسوس دون المنطوق.

إن التكامل المفقود حالياً من المنظور التربوي كان له تجليات واضحة في النظام التربوي القديم. وسنقدم مجموعة من النماذج تفسر بعض مظاهر اللاتكامل البارز في النظام الحالي. وما يؤكد هذا الانعدام، أو من علامته:

- (1) افتقار العلاقة بين المعرفة والمجتمع المحلي، أو محيط المتعلم؛
- (2) تكريس التبعية المعرفية (المادة (أ) أحسن وأكثر فعالية من المادة (ب))، وهو ما يؤدي إلى انخفاض الكفاءات والفعالية؛
- (3) التضارب المعرفي ضمن المقرر الواحد، والمقررات المتخلفة.

مبادئ التكامل المعرفي:

إن نجاح الخطاب التربوي في جعل التكامل المعرفي ركيزة أساس، يعتمد في مدى تمثله للمبادئ التالية:

- أ. الترتيب المنطقي للمعارف: الانتقال من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى الصعب.
- ب. تحقيق وحدة المعرفة: التكامل يساعد المتعلم على تنظيم المعرفة والربط بينها وبين الخبرات.
- ت. المرونة في اكتساب المعارف: وذلك من خلال:

✓ البعد عن الروتين والنمطية الملزم بانتهاء المقرر الدراسي، مما يسمح

بالمشاركة وتحقيق العمق الفكري

✓ الحق في تغيير المعارف؛ من القديم إلى الأحدث.

ث. واقعية المعرفة: المعارف التي تقدم للمتعلم تركز على مشكلات وقضايا

واقعية.

ج. تطوير المعارف:

✓ البعد التنظيمي للمعرفة: الربط بين مكونات المعارف وتركيبها

الوظيفي؛

✓ البعد التركيبي للمعرفة: تحديد اعتبارات تطوير المعارف ودواعيها؛

✓ البعد المستقبلي: خضوع المعارف للمتطلبات الاجتماعية

والاقتصادية.

إن التكامل المعرفي يعمل على إحداث النوعية في الخطاب التربوي، إذ تقوم فلسفة

التكامل على رفض أن "تعلم اللغة العربية، ولا نعلم عنها إلا تنظيم القواعد عبر السنوات

والتراكمية المعرفية، وتدرّس التاريخ يقتصر على تدريس المعارك والحروب، دونما اهتمام بالعبارة

والعظة، وتنمية الهوية والوجدان القومي من خلال إحداث التكامل بين الأقسام..."¹⁶.

ومن نماذج ضرورة التكامل المعرفي، مهما كانت المسائل الرياضية التي يعالجها علم الرياضيات

فإنها لم تعد منفصلة عن سائر المعارف الأخرى على أساس أن يبني منهج الرياضيات بالتكامل مع

¹⁶ حسن شحاته، التعليم دعوة للحوار في الوطن العربي، المصرية اللبنانية- القاهرة، 2006، ص 210.

المعارف الأخرى على ضوء الصلات الوثيقة بين مجالات المعرفة الإنسانية والاعتماد المتبادل فيما بينها"¹⁷.

من جانب آخر، إن تحقق التكامل يستدعي فلسفة تربوية مناسبة ومتوافقة مع مبادئه (التكامل).

الفلسفة البراغماتية

وجب الإيمان بحقيقة تاريخية وحتمية مفعولها يقوم على أن "ثراء الأفراد والبلدان، لم يعد يعتمد على نفس العناصر التي كانت سائدة في السابق، والذي كان توفر الموارد الاقتصادية أهم عنصر في المعادلة الاقتصادية، وفي القرن الحادي والعشرين ستصبح قوة العمل والتعليم هما السلاح التنافسي الأول، ولن تعتمد الميزة التنافسية على ثروات الموارد الطبيعية؛ إذ أن الصناعات الرئيسية السبع للعقود القادمة هي الالكترونيات الدقيقة، والتقنية الحيوية، وصناعات المواد الجديدة، والطيران المدني، والاتصالات، وأجهزة الربوت المزودة بأجهزة القطع والتشكيل، والحاسبات الآلية، والبرامج. وهذه كلها صناعات المقدرّة العقلية"¹⁸.

تقوم الفلسفة البراغماتية على الجانب العملي المباشر، إذ أضحى من الضروري أن تكون لكل أمة فلسفة تربوية خاصة بها، تأخذ بعين الاعتبار ماضيها وحاضرها ومستقبلها. تدخل الفلسفة البراغماتية ضمن مفهوم التربية التجديدية، حيث تعد "ذلك النظام التربوي الذي يعمل على تجديد معلومات المتعلم ومهاراته العقلية والعملية واتجاهاته الإرادية إلى الدرجة التي تمكن هذا الإنسان من إقامة علاقاته مع الآخرين على أساس من التكامل والفهم المستقل والوعي المنفتح القادر على ابتكار الوسائل اللازمة لمواجهة تحديات الزمان والمكان والمشاركة في صنع قراراته المتعلقة بحاضره ومستقبله"¹⁹.

¹⁷ Pamela Harrell, teaching an integrated science curriculum, linking teaching assignment, journal of teacher education, spring 2010, p 149.

¹⁸ عبد الكريم بكار، تجديد الوعي، ط1، 2000، ص 56-57 يتصرف.

¹⁹ ماجد عرسان الكيلاني، التربية والتجديد، ط1، 2005، ص 103.

اشتقت كلمة البراغماتية²⁰ من اللغة اليونانية براغما "Pragma" أو "Pragmata" والتي تعني الفعل. فلانلد ينظر في معجمه إلى البراغماتية من مستويين:

1. الأول: علم الفعل؛
2. الثاني: صفة ترتبط بالعمل والنجاح والحقيقة والاستعمالات النافعة.

أما في الاصطلاح، فهي عملية تفكير وتأمل ترتبط بنتائجها، أي إخضاع الأمور للاختبار. بزغت البراغماتية كفلسفة مناهضة للمثالية والواقعية خلال القرن التاسع عشر، كما جاءت بمبادئ جديدة:

- ◆ الأخذ بمعيار المنفعة؛
- ◆ الديمقراطية أسلوب حياة وطريقة عمل؛
- ◆ الخبرة الذاتية وسيلة للمعرفة؛
- ◆ الطريقة العلمية أساس اختبار الأفكار.

أما من حيث خصائصها:

- ◆ قيام المعرفة على الخبرة؛
- ◆ الخير معيار التحقق؛
- ◆ الموضوع هو الذي تنتج عنه آثار علمية؛
- ◆ الإيمان بالتقدم داخل المجتمع (الزعة التطورية)؛
- ◆ التفاعل بين الفرد والمحيط.

ولتبسيط هذه الفلسفة، فالعقل لا ينال مقاصده إلا إذا أدى عملا منتجا، بمعنى أن صحة الأفكار مرتبط بالتجربة، ومعيار صدقها من عدمه هو النتائج العلمية. علما أن الحقيقة غير ثابتة، وإنما تنصف بالتغير، فما كان حقيقيا في الماضي لم يعد كذلك في الحاضر ولن يكون في المستقبل، وإنما تأثير نجاحها هو الذي سيبقى ممتدا.

تفرض الفلسفة البراغماتية التفريق بين التربية والتعليم "فالتعليم يكون جانبا من جوانب العملية التربوية وعمقا من أعماقها، والتربية لا تهدف فقط إلى توصيل معرفة أو إكساب

²⁰ يعد شارل ساندروس بيرس Charles sanders perce أول من استعمل مصطلح البراغماتية.

مهارة أو تنمية قدرة أو طاقة، ولكنها بالإضافة لهذا أو فوق هذا تهدف إلى تنمية الفرد من جميع جوانبه الروحية والخلقية والفكرية والمهارية والبدنية وإعداده إعداداً سليماً لكي يكون عضواً نافعاً في المجتمع الذي يعيش فيه²¹. وعليه، فللتربية مؤسسات خاصة بها؛ الأسرة، المسجد... في حين تعد المدرسة موطن إنتاج المعرفة، ولا ينبغي أن يفهم من ذلك، وجود فصل تام بين الجانبين، بل هنالك ترابط عضوي وتكامل معرفي ومنهجي. غير أن الخلط بين التربية والتعليم، من حيث التخطيط والإجراءات، جعلت من الخطاب في مجمله أمام واجهتين: القيم والمعرفة، في الوقت الذي وجب فيه الحديث عن التخطيط التربوي، والتخطيط التعليمي- التعليمي.

تقوم المعرفة عند الإنسان، من منظور فهم الفضاء، فعند ولادته، يسعى فهم الفضاء الذي يوجد فيه، والعمل على التفاعل معه. ليكون أول ما يبداً به، محاولته فهم الأشياء:

- 🕯 الوصول والإمساك بالأشياء؛
- 🕯 البحث عن الأشياء المخفية؛
- 🕯 تتبع الأشياء المتنقلة؛
- 🕯 التعرف على الأشخاص.

وبهذا، يرى جون ديوي أن الفكر مرتبط بالعمل، معللاً ذلك بالإنسان؛ فتفكيره يشتغل حينما يواجه صعوبات ومشكلات واجبة الحل. إذن، فالأفكار لها قيمة وظيفية أو وسيلة فقط. وهنا نستحضر تعريف ابن القيم الذي يعرف الفكر: "...فالفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منها معرفة ثالثة"²²، لتلك الغاية اقترح ابن القيم مجموعة من الوسائل لتربية الفكر، وليس أي فكر وإنما الفكر الديني، بالركون إلى التربية، ومن أبرزها:

- أ. تدبر مخلوقات الله لمعرفة قدراته الباهرة؛
- ب. الامتثال لأوامر الله والاستقامة على منهجه؛
- ج. الحذر من المعاصي والتقليد، لكونه يحجر على العقل ويعطل مفعول الفكر؛
- د. توافر مناخ ملائم لممارسة التفكير.

²¹ الفكر التربوي العربي الحديث، سعيد إسماعيل علي، مجلة عالم المعرفة، العدد 113، ماي 1987، ص 287.

²² حسن بن علي بن حسن الحجاجي، الفكر التربوي عند ابن القيم، ط1، 1988، ص 261.

وبالعودة إلى جون ديوي، فقد انطلق من منظور جديد قائم على التغيير، فالعالم يتحرك ويتفاعل ويرابط، باستمرار، بين سائر أجزائه ومكوناته، مما يجعله يؤمن أن العالم "ليس جامداً، بل عملية ديناميكية متطورة"²³.

قد يطرح سؤال حول مكانة القيم بكل أشكالها ومعانيها، ضمن التصور البراغماتي، والجواب على ذلك يتمثل في كون كل فرد حامل قيم، فهي التي تحرك عمله وخبراته؛ إذ "ليست سوى إمكان فاعل يحمل في ذاته السبب الذي يحملنا على تحقيقه"²⁴ إن استدعاء فلسفة جون ديوي ليس عبثاً، وإنما توافقه مع ما يحتاجه العالم اليوم، والخطاب التربوي خصوصاً؛ فالمصدر الأساسي للمعرفة، وفقه، يرتبط أشد ارتباط بالخبرة والنشاط الفردي، أي من خلال تفاعله مع محيطه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والإعلامي والحقوق والفكري والديني. وهنا، وجب الاشتغال وفق خصائص المعرفة الجديدة، تربوياً، والتي هي:

التجدد والتطور؛

المعرفة ليست قبلية، وإنما هي نتاج تجارب وخبرات؛

المعرفة ليست نهائية، بل مجموعة فروض؛

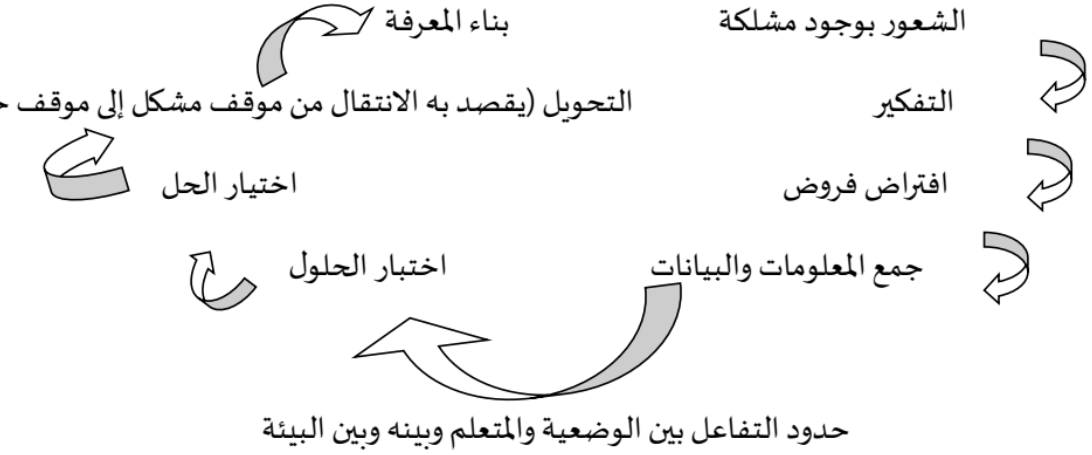
الموقف والتفاعل من أساسيات اكتساب المعرفة؛

التفكير أساس المعرفة.

والشكل الآتي سيوضح أكثر:

²³ زكرياء إسماعيل أبو الضيعات، الديمقراطية وفلسفة التربية، ط1، 2009، ص 92.

²⁴ عادل العوا، العمدة في فلسفة القيم، ط1، 1986، ص 305.



بالاستناد إلى هذه الخطاطة، تكون التربية هي تنمية قدرات المتعلم للانتقال من موقف مشكل إلى مواقف حلول عبر تسخير وسائل وأدوات مناسبة وفق منهج علمي وعملي. من جانب آخر، ترتبط البراغمية بالتربية التقدمية، فهي قامت على الديمقراطية والإبداع واحترام ميولات المتعلم:

- ♣ الاهتمام بكل ما يؤثر على المتعلم ونموه؛
- ♣ التركيز على الوضعيات؛
- ♣ التشجيع على التعاون؛
- ♣ التربية هي الحياة وليس الإعداد لها.

إن تعليم المتعلم خارج نشاطه الاجتماعي أو حياته الاجتماعية، نكون أمام دائرة التفريغ أو التشتيت، حسب جون ديوي، أي جعل المواد الدارسية في تفاعل مع نشاط أو حياة المتعلم. كما لا ينبغي أن تكون تراثا وإنما خبرات متناسقة وقابلة للتوظيف: اللغات، العلوم، التاريخ والجغرافيا، ... بهدف تقريب الحقائق للمتعلم لسد النقص لا توليده. ومنه، فالخطاب التربوي، كيفما كان نوعه، ينبغي أن يطمح بناء شخصية متوازنة عبر آليات محددة ومعدة لهذا الغرض؛ مراعيًا في ذلك تموضعات سياسية وفكرية وسياسية واقتصادية واجتماعية وعقدية باعتبارها تمثل بيئة الخطاب. بخلاف ذلك، قد لا يتحقق هذا المبتغى، وذلك

حينما يكون الخطاب التربوي، خطابا دينيا تراكميا، يستند على "التعلم عن طريق المحاكاة، وربما أيضا التعلم التلقيني"²⁵.

وجب الإشارة، أنه لا يمكن للغايات التربوية، ضمن خطاب تربوي، أن تتحقق إلا إذا تكونت لدى المعلم فكرة شاملة حول من يخاطب " فأول واجب يترتب على المعلم هو أن يتعرف ماهية الإنسان"²⁶، إذ يشكل هذا التعرف المتفحص، هو الذي يحدد توجهات السيورة التربوية. وصفوة القول، إن تبني الفلسفة البراغماتية في حقل التربية والتعليم، يستوجب حتما، حضور النزعة الإقليمية. هذه الأخيرة تنطلق من مفهوم الخصوصية التاريخية والجغرافية والدينية والعرقية..... فبعدما كان الخطاب أو الخطابات التربوية العربية تنطلق من الدين (القرآن والسنة) وفلسفات غربية، لتنتهي بمخرجات مختلفة في كل منطقة؛ سواء نحو الأفضل أو الأسوأ. هذا الوضع، يفسر بسوء فهم تلك المصادر أو عدم القدرة على بسط مضامينها على أرض الواقع. لذلك، فاعتماد المقاربة الإقليمية أضحت مسألة ضرورية من جهة، وتوافقها مع تحديات وإكراهات كل إقليم، ومنه فالسمات المشتركة جزء ضئيل من الطبيعة المجتمعية الخاصة، في هذا الصدد يقول جمال حمدان: " فنحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلى درجة تتجاوز الكبرياء الصحي إلى الكبرياء المرضي. ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية العزة الوطنية المتزنة"²⁷، ومن خلال هذه النرجسية تنتج أسباب ازدواجية العقل العربية وتناقضه.

خلاصات

- ✓ إن الخطاب التربوي العربي خطاب تقديمي من حيث التنظير، ورجعي تفعيلا؛
- ✓ فعالية الخطاب مرتبطة بانسجام وتكامل مكوناته؛
- ✓ ضرورة اعتماد التكامل المعرفي كآلية في صياغة المناهج والمقررات الدراسية؛
- ✓ الاعتماد ينبغي أن يقوم على مبادئ التكامل المعرفي، والذي لا يقتصر على الفضاء المؤسساتي، وإنما يجب أن يمتد إلى المؤسسات ذات الصلة: الأسرة- الإعلام، المسجد....

²⁵ ميشيل توماسيللو، الأصول الثقافية للمعرفة البشرية، ترجمة شوقي جلال، ط1، 2006، ص 59.
²⁶ حسن بن علي بن حسن الحجاجي، التفكير التربوي عند ابن رجب الحنبلي، ط1، 1996، ص 57.
²⁷ الفكر التربوي العربي الحديث، سعيد إسماعيل علي، مجلة عالم المعرفة، العدد 113، ماي 1987، ص 201.

- ✓ التكامل المعرفي، ضمن الخطاب التربوي، لن يقوم إلا باعتماد الفلسفة البراغماتية، فلسفة تقوم على تجديد معارف ومهارات المتعلم؛
- ✓ التفاعل بين المتعلم والمحيط، في عملية حل المشكلات، لا ينبغي أن يكون نمطياً أو عشوائياً، بل وجب أن يكون محدداً ونفعياً (مؤثراً)؛
- ✓ سعي الخطاب التربوي والفلسفة البراغماتية والتكامل المعرفي بناء شخصية متوازنة؛
- ✓ ضرورة استحضار البعد الجغرافي (الجهوية) في اعتماد التكامل المعرفي، بدعوى ارتباطها بفضاء المتعلم، إذ كلما ارتبطت المعرفة -المهارة- بفضاء المتعلم، كلما تحققت الجودة والفاعلية.

المراجع

العربية

1. أحمد فايزة، محمد أمل، فاعلية وحدة مبنية على التكامل بين مادتي التاريخ والتربية الفنية باستخدام الكمبيوتر لتنمية التحصيل المؤجل واكتساب بعض مهارات التعبير الفني والاتجاه نحو الكمبيوتر لدى تلاميذ الصف الأول الإعدادي، مؤتمر إعداد المعلم في الوطن العربي بين الواقع والمأمول، كلية التربية، جامعة الفيوم، 18-19 أبريل، 2006.
2. أوليفي روبول، لغة التربية، تحليل الخطاب البيداغوجي، ترجمة عمر أوكان، 2002.
3. جابر عصفور: آفاق العصر، ط 1، دار المدى للطباعة والنشر، 1997.
4. حسن بن علي بن حسن الحجاجي، التفكير التربوي عند ابن رجب الحنبلي، ط 1، دار الأندلس الخضراء- جدة 1996.
5. حسن بن علي بن حسن الحجاجي، الفكر التربوي عند ابن القيم، ط 1، دار حافظ للنشر والتوزيع، الرياض، 1988.

6. حسن شحاته، التعليم دعوة للحوار في الوطن العربي، المصرية اللبنانية- القاهرة، 2006.
7. خضران بن عبد الله السهيبي، الخطاب التربوي للمرأة في روايات الأدباء العرب، ط 1، مركز البيان للبحوث والدراسات- الرياض، 2016.
8. زكرياء إسماعيل أبو الضبعات، الديمقراطية وفلسفة التربية، ط 1، دار الفكر- عمان، 2009.
9. الشربيني فوزي، عفت الطنطاوي، مداخل عاملية في تطوير المناهج التعليمية على ضوء تحديات القرن الحادي والعشرين، الانجلو المصرية، القاهرة، 2001.
10. عادل العوا، العمدة في فلسفة القيم، ط 1، طلاسدار للدراسات والترجمة والنشر- دمشق، 1986.
11. عبد الكريم بكار، تجديد الوعي، ط 1، دار القلم، دمشق، 2000.
12. الفكر التربوي العربي الحديث، سعيد إسماعيل علي، مجلة عالم المعرفة، العدد 113، ماي 1987.
13. ماجد عرسان الكيلاني، التربية والتجديد، ط 1، دار القلم، دبي، 2005.
14. محمد بازي، صناعة الخطاب الأنساق العميقة للتأويلية العربية، ط 1، 2015.
15. محمد عبد الباسط عير، النص والخطاب قراءة في علوم القرآن، ط 1، مكتبة الاداب- القاهرة، 2009.
16. مدحت محمد، إبراهيم صالح، فاعلية المدخل التكاملي القائم على حل المشكلات في تنمية التحليل بمبادئ العلوم والرياضيات والدافع للإنجاز لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية متبايني المستويات التحصيلية، مجلة كلية التربية ببورسعيد، جامعة قناة السويس، العدد الأول، ديسمبر 2006.
17. ميشيل توماسيللو، الأصول الثقافية للمعرفة البشرية، ترجمة شوقي جلال، ط 1، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، 2006.

الأجنبية

1. Andre Laland, Vocabulaire technique et critique de la philosophie, PUF, 4eme édition, 1962.
2. Pamela Harrell, teaching an integrated science curriculum, linking teaching assignment, journal of teacher education, spring, 2010.

Rebecca Rogers: An Introduction to critical discourse analysis in .3
.04education second edition, 20